الدعوات الإصلاحية في إفريقيا في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وموقف القوى الأجنبية منها

د. راجية إسماعيل أبوزيد
دكتوراه في التاريخ الحديث
جامعة عين شمس

العدد ٥٠ يناير ٢٠١٨ م

المقدمــة:

مرت على العالم الإسلامي دعوات إصلاحية كثيرة وكلها تهدف إلى إصلاح حال المسلمين والحفاظ على الإسلام وإحياء الشعور الوطني وإبراز أهمية الوحدة السياسية والكرامة الوطنية. وفي العصر الحديث ظهرت دعوات إصلاحية في إفريقيا أهدافها واحدة، وإن كان بينها بعض أوجه الاختلاف، ومن أهم الدعوات؛ الدعوة السنوسية في ليبيا، والدعوة المهندية في السودان، وحرب الدراويش في الصومال.

وتنقسم هذه الدراسة إلى:

أولاً: الدعوة السنوسية وعوامل انتشارها وموقف القوى الأجنبية منها.

ثانياً: الدعوة المهدية وانتشارها في السودان وموقف القوى الخارجية منها ثم عوامل الوحدة والاختلاف بين الدعوتين.

ثالثاً: حرب الدراويش في الصومال ١٩٠٠ – ١٩٢٠م .

وأعقب ذلك الخاتمة ثم قائمة المصادر والمراجع.

أولا_ الدعوة السنوسية:

مؤسسها هو محمد بن علي السنوسي ولد في ناحية الواسطة من بلدة مستغانم في الجزائر عام ١٧٨٧م، نشأ في أسرة دينية فأخذ منها قدراً كافياً من العلم ثم تنقل في أقطار كثيرة متصلاً بعلمائها، فذهب إلى جامع القرويين في فاس والذي كان مركزاً من مراكز العلم والعلماء في ذلك الوقت، فأقام به سبع سنوات (١٨٢٢ – ١٨٢٩م) طالباً للعلم ثم مدرساً، وقد اهتم بالصوفية اهتماماً أساسه اعتقاده بأن سبيل الإصلاح الأول هو إيجاد التفاهم بين جميع المهتمين بالإسلام أفراداً وجماعات على تباعد الأقطار والديار، فطالب بالرجوع بالدين الإسلامي إلى ما كان عليه والعمل بالقرآن والسنة ومراعاة أحكام الشريعة في الأعمال الخاصة والعامة، ونشر الدين الإسلامي بين الوثنين كما دعا إلى

الاجتهاد في مسائل الدين لأن علماء المسلمين التزموا بالتقليد والنقل دون التجديد[١].

ومن فاس انتقل إلى الجزائر وعاش بينهم معلماً وموجهاً ثم واصل تنقلاته إلى تونس، فطرابلس، فبني غازي، فالقاهرة [٢] ثم سافر إلى الحجاز حيث بقى هناك ثمانية أعوام يدرس الفقه الإسلامي على يد علماء مكة والمدينة المنورة، ويدرس أحوال المسلمين الذين يفدون كل سنة للحج من مختلف الشعوب والأقطار، وفي الحقيقة فإن أفكار محمد بن علي السنوسي لم تنضج إلا بفضل شيخه السيد أحمد بن إدريس الفاسي مؤسس الطريقة الإدريسية حيث لازمه وربطت بينهما أواصر الصداقة وعند وفاته نظم تلميذاه محمد السنوسي ومحمد عثمان أتباع شيخهما في فرعين جديدين للطريقة السنوسية والميرغنية [٣] وأسست الأولى رئاستها عند جبل قبيس في مكة عام ١٨٣٧م ويعتبر هذا العام تاريخاً رسمياً لتكوين الطريقة السنوسية [٤] وكان لوجوده في مكة شأن كبير في قيام دعوته وانتشارها [٥].

ترك السنوسي الحجاز عام ١٨٤٠م عائداً إلى الجزائر عن طريق مصر (واحة سيوة) ثم إلى برقة وطرابلس ولكنه خشي الفرنسيين الذين احتلوا الجزائر عام ١٨٣٠م فعاد إلى برقة حيث نزل بالجبل الأخضر ليتخذ منه مقراً لدعوته [٦].

---

(١) محمد الطيب إدريس الأشهب: السنوسي الكبير، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٦م، ص٨.

(٢) محمد فؤاد شكري: السنوسية دين ودولة، دار المعرفة للنشر ، القاهرة، ١٩٤٥م، ص ٢٠.

(٣) مصطفى عبدالله بعيو: دراسات في التاريخ اللوبي، دار المعرفة للنشر، القاهرة، ١٩٤٥م، ص ٢٤، ٢٦.

(٤) E. E .Evans Pritchatd: The Sanusi of Cyrenaica, London. 1958, P. 12.

(٥) محمد فؤاد شكري: المرجع السابق، ص ٢٠.

(٦) رأفت الشيخ: في تاريخ العرب الحديث، دار الثقافة للنشر ، ط ٣، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٢٣١.

وقد توفرت في برقة ظروف اجتماعية، وسياسية، ودينية هيأت للسيد محمد بن علي السنوسي أن يدعو لأفكاره بين أهل الإقليم الذي تميز بانقسام سكانه إلى قبائل متنافرة بجانب ابتعادهم عن أصول الإسلام الصحيح؛ إذ أسس بعض أصحاب النفوذ من شيوخ البدو في الجبل الأخضر ضرباً من الكعبة قصدوا به تقليد البيت الحرام، وقد أراد مؤسسو تلك الكعبة الزائفة أن يُدخلوا في أذهان البدو أن زيارتها تقوم مقام حج بيت الله الحرام إلى غير ذلك من الأعمال المنافية للدين [١].

أسس الدعوة السنوسية:

تعد الدعوة السنوسية في جوهرها دعوة دينية هدفها إصلاح الدين الإسلامي ونشره بين الوثنيين وإصلاح شأن المسلمين [٢].

تميزت الدعوة السنوسية بأسلوب انفردت به في نشر مبادئها الدينية والاجتماعية والسياسية لذلك كانت فرص النجاح أمامها أكثر عن غيرها من حركات الإصلاح السلفية الأخرى، وقد تمثل ذلك الأسلوب في التدرج والسلام والترغيب، وبذلك نجح السنوسي الكبير في تأسيس دولة دينية مسالمة دون قطرة دماء واحدة حتى وفاته في عام١٨٥٩م [٣].

الزوايا السنوسية:

كانت الزوايا البيضاء في برقة أول مركز رئيسي للدعوة السنوسية في ليبيا وأنشئت عام ١٨٤٣م [٤]، ثم سرعان ما انتشرت الزوايا في أنحاء العالم الإسلامي فنجد أن مؤسس الدعوة محمد بن علي السنوسي قد انتقل إلى جوار ربه تاركاً ٦ زوايا بالحجاز، ٩ زوايا بمصر، ٢٢٤ زاوية في برقة، ٧ زوايا في إقليم طرابلس، ٥ زوايا بإقليم فزان وزاوية واحدة بتونس. وقد أضاف إلى هذا

(١) مصطفى بعيو: المرجع السابق، ص ٣٣.
(٢) محمد فؤاد شكري: المرجع السابق، ص ١٣.
(٣) محمد الأشهب" المرجع السابق، ص ٣٣.
(٤) Evan.Prichard: Optic.P10

العدد السيد محمد المهدي ابن صاحب الدعوة وخليفته زوايا أخرى وقد امتدت الزوايا إلى الأقطار الإفريقية المجاورة [١] وازدياد عدد الزوايا يدل على تقبل الناس للدعوة وإسهامهم في بناء الزوايا في كل مكان كي تصل إليه الدعوة، وكان بناء الزاوية يتم في الغالب بناءً على طلب إحدى القبائل حيث ترسل إلى صاحب الدعوة برسول يحمل رغبة أهل القبيلة، فيقوم بإرسال شيخاً من رجاله المتعلمين إليهم [٢]، وكان بناء الزاوية يستغرق أكثر من العام فكان يتم بناء المسجد أولاً ثم دار لإقامة الشيخ وأسرته، ثم يكمل بناء الزاوية لتشمل بيوتاً لوكيل الزاوية، ومعلم الأطفال، ومساكن للضيوف، والخدم، ومخزناً لحفظ المؤن واصطبل، وبستان، ومتجر، وحجرة خاصة بالفقراء الذين لا عائل ولا مأوى لهم، وفرن لسد حاجة السكان بالخبز [٣].

أما عن مواقع هذه الزاوية فقد تميزت بصفات سياسية وتجارية واستراتيجية فمن الناحية السياسية انتشرت الزوايا في المناطق الداخلية أكثر من انتشارها في السواحل وذلك تحاشياً لوقوع أي صدام بين السنوسيين والعثمانيين وذلك في بداية الدعوة فاختار الجعبوب وثم انتقل إلى الكفرة فيما بعد [٤] ومن الناحية التجارية والاقتصادية أقيمت معظم الزوايا في طريق تجارة القوافل، وكان لذلك أثره الكبير في ازدياد ثروة البلاد الاقتصادية بما لعبته الزوايا من دور كبير في تشجيع تجارة القوافل[٥] ولا تقل الأهمية الاستراتيجية لمواقع الزوايا عن الأهميتين السياسية والاقتصادية، فقد كانت معظم الزوايا تقام على مناطق مرتفعة حصينة حتى يمكن للسنوسيين الدفاع عنها ضد المغيرين من الداخل أو الأعداء من الخارج، وقد قامت كثير من الزوايا على أنقاض الأطلاف الإغريقية والرومانية أو على مقربة منها حتى يمكن الاستفادة من أحجارها في

---

(١) محمد الأشهب: المرجع السابق، ص ٣٣، ٣٤.
(٢) محمد فؤاد شكري: المرجع السابق، ص ٥١.
(٣) محمد الأشهب: المرجع السابق، ص ٣١، ٤١.
(٤) مصطفى بعيو: المرجع السابق، ص ٥٩.
(٥) فيلب رفله: الجغرافيا السياسية لأفريقيا، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٣٣٨.

عملية البناء [١] وكانت كل زاوية تبعد عن مُجاورتِها مسافة ست ساعات، وهي تعتبر بمثابة خطوط دفاع متتالية [٢] .

تنظيم الزوايا:

أما عن تنظيم الزاوية فقد وضعه صاحب الطريقة حتى تؤدي الزاوية رسالتها على الوجه الصحيح؛ فعلى رأس كل زاوية مقدم (الشيخ) وبعده وكيل وظيفته كوظيفة الحاكم المدني، وللمقدم والوكيل سلطة كبيرة على أهل الزاوية جميعاً، والقبيلة كافة فالأمر الصادر عن أحدهما مقروناً باسم السيد السنوسي يكون واجب الطاعة على الجميع [٣]وكانت القبيلة تتحمل نفقات كسوة شيخ الزاوية وثمن سلاحه وفرسه وأهل بيته وشيخ الزاوية يحتفظ من واردات الزاوية بما يكفي للصرف على مشروعات ونشاط الزاوية ويرسل الباقي إلى الزاوية الأم حيث صاحب الدعوة [٤]ويجتمع شيوخ الزوايا سنوياً للتشاور وفقا للوقت والمكان الذي يحدده صاحب الدعوة [٥].

رسالة الزاوية:

مارست الزاوية وظيفة دينية وتعليمية واجتماعية واقتصادية وعسكرية لذلك نجد أن الزوايا خدمت الدين الإسلامي خدمة جليلة بتنقيته مما علق به من بدع وتعاليم تبعده عن أصوله الأولى، كما خدمت الإسلام بنشره بين الوثنيين في إفريقيا وهدايتهم إلى الإسلام [٦].

كما أدت الزاوية دوراً تعليمياً كبيراً فهي تقوم بمهام المراكز الثقافية أو مجالس المدن في عصرنا الحالي فكل زاوية بها مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي واللغة العربية، وقد حوت زاوية الجعبوب مكتبة تضم

(١) مصطفى بعيو: المرجع السابق، ص ٥٣.
(٢) محمد فؤاد شكري: المراجع السابق، ص ٣٢.
(٣) لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، تعريب: عجاج نويهض، وتعليق: شكيب أرسلان، بيروت، ١٩٦٥م، ج١، ص ٢٩٨.
(٤) نقولا زيادة: برقة الدولة العربية الثامنة، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٥٠، ص ٧٦.
(٥) محمد الأشهب: المرجع السابق، ص ٣١.
(٦) رأفت الشيخ: المرجع السابق، ص ٢٤٨.

ثمانية آلاف مجلد من كتب التفاسير والأحاديث والفقه بجانب العلوم الطبيعية [١]وبجانب مواد الدراسة بالزاوية كان طلاب العلم يتدربون على إتقان بعض الحرف والصناعات مثل صناعة البارود والأسلحة، ومن هنا نلاحظ أن الزوايا لم يقتصر دورها على العبادة فقط بل دفعت المسلمين ليكونوا عاملين منتجين في شتى المجالات فكانت تضم بجانب المسجد؛ المدرسة والمزرعة والمتجر كما دعا صاحب الدعوة بالاهتمام والاستعداد الحربي بتعلم الرماية وركوب الخيل واستخدام السلاح لأن المؤمن القوي أفضل عند الله من المؤمن الضعيف.

وكان للزوايا دوراً اجتماعياً، فقد قامت بالتوفيق والمصالحة بين القبائل فانتشر الأمن والاستقرار [٢] وباستقرار القبائل واستتاب الأمن نشطت حركة التجارة والزراعة في الزاوية وعمرت الطرق بالقوافل وازداد التبادل التجاري بين منتجات الزاوية وبين ما تحمله القوافل [٣].

وقد أوصى السنوسي الكبير بأن يكون ابنه الأكبر محمد المهدي رئيساً للطريقة كما بايعه فأصبح في حياة والده صاحب البيعة وبمقتضى هذا النظام صارت الدعوة السنوسية وراثية في أسرة السنوسي [٤].

المهدي السنوسي:

ولد محمد المهدي السنوسي في عام ١٨٤٠م بالزاوية البيضاء بالجبل الأخضر [٥] ونشأ في جو ديني واحترام الجميع له فكان والده يؤمن ويعتقد بأن ابنه هو المهدي المنتظر [٦] لذلك قال "اسميناه المهدي ليحوز جميع أنواع

---

(١) محمد عثمان الحشائشي: رحلة الحشائشي إلى ليبيا، تحقيق: علي المصراتي، بيروت، ١٩٦٥م، ص١٥١.
(٢) مصطفى بعيو: المرجع السابق، ص ٦٢.
(٣) محمد الأشهب: المرجع السابق، ص ٥٠.
(٤) محمد فؤاد شكري: المرجع السابق، ص ٥١.
(٥) محمد عثمان الحشائشي: المرجع السابق، ص ١٥٨.
(٦) أحمد صدقي الدجاني: الحركة السنوسية، نمونها ونشأتها في القرن ١٩، رسالة

الهداية ونرجو الله أن يكون هادياً مهدياً" [١] فاهتم به والده و عامله على قدر هائل م الاحترام والتبجيل كتقبيل يده تحسبا لما سيكون له من حظة وعلو شأن [٢]، وهكذا اعتقد العامة أن محمد المهدي السنوسي هو المهدي المنتظر خاصة بعدما شاع على لسان المغاربة العابرين في طريقهم للحج انطباق صفات المهدي المنتظر التي قرأوا عنها على صفات محمد المهدي السنوسي، فأشاعوا ذلك بين العامة والخاصة [٣].

ومع ذلك فلم يكن محمد المهدي السنوسي نفسه يقتنع بذلك، فحين سألته أرملة والده "أصحيح أنك المهدي المنتظر؟ قال: قيل لي إن هناك من يخرف بهذه الخرافة" [٤] إلا أن هذا لم يغير الاعتقاد السائد بين الناس ولم يمنع المهدي السنوسي إلى الإعلان بين أتباعه بخطأ ما يقولونه ويظنونه إلا ظهور محمد أحمد المهدي في السودان لأنه إذا ما اتخذ أمراً كهذا فسيؤدي إلى انتشار دعوة المهدي السوداني على حساب الدعوة السنوسية، ولذلك فإن اعتقاد السنوسيين في كونه المهدي المنتظر خير رادع للدعوة المهدية التي قامت في السودان[٥].

وفي الحقيقة فإن الاعتقاد بمهدوية المهدي السنوسي من العوامل التي ساعدت على انتشار الدعوة السنوسية سريعا، بجانب العلاقات التجارية للدعاية في مناطق واداي، وما جاورها جنوباً وغرباً حتى السنغال [٦].

_السنوسية والقوى الخارجية:

كانت للسنوسية مواقف من القوى الأجنبية معادية لأطماع هذه القوى في الأقطار العربية والإسلامية من ذلك موقفها من الفرنسيين في الجزائر،

ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٦٠م، ص ١١٨.

(١) محمد الطيب الأشهب: المهدي السنوسي، دار لثقافة للنشر ، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٢٩، ٨٦.

(٢) الحشائشي: المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٣) سعاد عبد العزيز: الحركة السنوسية، قيامها وانتشارها، رسالة ماجستير غير منشورة، معهدالدراسات الإفريقية، القاهرة، ١٩٦٩، ص ١٥.

(٤) محمد الأشهب: المهدي السنوسي، ص ٨٩، ٩٠.

(٥) نفس المرجع السابق، ص ٩٣.

(٦) محمد الأشهب: المهدي السنوسي ، ص ٦٣.

وغرب إفريقيا وموقفها من الإيطاليين في ليبيا، ومن الإنجليز في مصر، فمنذ احتلت القوات الفرنسية الجزائر؛ أرض وبلد صاحب الدعوة محمد بن علي السنوسي، أجل السنوسي مقاومة الفرنسيين إلى أن يصل العالم الإسلامي إلى درجة الانتباه التام [١] وبدأ يعد أتباعه إعداداً حربياً إلى جانب الإعداد الديني لمقاومة إمتداد الأطماع الفرنسية خارج الجزائر.

وعندما احتلت القوات الفرنسية تونس عام ١٨٨١م وتوغلت بقواتها حتى وصلت إلى واداي التي كان للسنوسية فيها نفوذ كبير بفضل انتشار الزوايا، أدرك السنوسيون الخطر الفرنسي على نشاطهم ومن ثم دارت الحرب بين السنوسيين والفرنسيين، وقاد السنوسيين سيدي محمد البراش والسيد عمر المختار إلا أنه ظهر منذ اللحظة الأولى عدم تكافئ القوتين، فانسحب السنوسيون نحو الشمال تاركين الجنوب غنيمة للفرنسيين [٢].

وقد استمر الصراع بين السنوسيين والفرنسيين طويلاً بعد وفاة السيد المهدي وتسلم السيد أحمد الشريف إمارة السنوسية عام ١٩٠٢م حتى عام ١٩١١م عندما انشغلت السنوسية بالاحتلال الإيطالي لليبيا وتوقف الغزو الفرنسي عند حدود برقة الجنوبية [٣].

أما بالنسبة لإيطاليا فقد اشتبكت السنوسية مع قواتهم وهب الشعب الليبي منذ الوهلة الأولى للدفاع عن أرض الوطن تحت زعامة السنوسية وخاصة في برقة[٤]وكانت إيطاليا تدرك أن انتشار الزوايا السنوسية في أنحاء ليبيا سيزيد من مقاومة السنوسيين للغزو الإيطالي كما أوحت تقارير عملاء جواسيس السنيور جوليت Giolitti رئيس الوزارة الإيطالية في ليبيا [٥] وإذا كانت تركيا قد عقدت مع إيطالي معاهدة أوش (لوزان) بسويسرا عام ١٩١٢م

---

(١) محمد فؤاد شكري: المرجع السابق، ص ٥٤.
(٢) زاهر رياض: استعمار إفريقيا ، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ١٥٩.
(٣) محمد فؤاد شكري: المرجع السابق، ص ٥٦.
(٤) محمد مصطفى بازامه: العدوان أو الحرب بين إيطاليا وتركيا في ليبيا، دار المعرفة، بنغازي، ١٩٦١م، ص١٥٩.
(٥) خليفة المنتصر: ليبيا قبل المحنة وبعدها، دار النهضة، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٧٩.

تركت بمقتضاها الليبيين لمواجهة الغزو الإيطالي [١] إلا أن السنوسيون والشعب اتحدوا بقيادة السيد أحمد الشريف زعيم السنوسية آنذاك وأعلنوا الحرب على الإيطاليين وعندما تولى السيد محمد إدريس عام ١٩١٨م زعامة السنوسية، واصل السنوسيون الجهاد المنظم ضد قوات الاحتلال الإيطالي في برقة، وقد استمرت مقاومة السنوسيين في برقة حتى عام ١٩٣١م بعد أن عهد زعيم السنوسية بأمر قيادة الجهاد للقائد عمر المختار، وخلال تلك المقاومة تم عقد اتفاق الرجمة في أكتوبر ١٩٢٠م والذي استطاع به أن تحصل السنوسية على اعتراف من إيطاليا بقيام الإمارة السنوسية في برقة [٢]، ورغم نقض الاتفاق إلا أنه كان دليلاً على اعتراف إيطاليا بمكانة السنوسية كقوة عسكرية [٣] وسياسية، وقد ظلت القوات السنوسية تحارب القوات الإيطالية في برقة حتى استشهد قائد السنوسيين عمر المختار عام ١٩٣١م وظل عداء السنوسية للإيطاليين حتى قيام الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م.

أما بالنسبة لإنجلترا فقد وقفت موقفاً معاديا للسنوسية خوفاً من انتشارها في إفريقيا ولم يكن عداؤها مباشراً كالعداء الفرنسي، فقد سهلت إنجلترا الطريق والانتقال في مستعمارتها الإفريقية لفرنسا أثناء صراعها في واداي ضد السنوسيين، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى أدرك السيد محمد إدريس ضرورة عقد صلح بين السنوسية وبين إنجلترا حتى تتفرغ السنوسية لمواجهة الخطر الإيطالي وحده، ومن ثم اتصل محمد إدريس بإنجلترا التي طلبت من السنوسيين التفاوض مع إيطاليا في نفس الوقت، وبالفعل تم عقد إتفاقية الرجمة مع إيطاليا وعقد إتفاق مع محمد أدريس والكولونيل الإنجليزي تالبوت ونص الاتفاق على أن يسلم السنوسيون جميع الرعايا البريطانيين والتابعين لدول الحلفاء إلى بريطانيا وأن يخرج كل السنوسيين المسلمين من مصر، ويُفتح طريق السلوم – الإسكندرية [٤].

---

(١) محمد فؤاد شكري: المرجع السابق، ص ١٤٦.
(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٥٩.
(٣) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص ٩١.
(٤) محمد فؤاد شكري: المرجع السابق، ص ٢٦.

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية ساهم السنوسيون بالوقوف إلى جانب قوات الحلفاء الذين تتزعمهم إنجلترا في محاربة قوات المحور ألمانيا – إيطاليا لدرجة أن إنجلترا أشادت بذلك الموقف وأوضحت أنه لولا مساعدة السنوسيين لهم لما استطاعو أن يتغلبوا على قوات المحور.

أما عن موقف الدولة العثمانية من الدعوة السنوسية فمنذ خضوع طرابلس الغرب للدولة العثمانية عام ١٥٥١م سيطر الحكم العثماني على السواحل وأهملت برقه حتى حكمت الأسرة القرمانلية، وسيطرت على طرابلس و برقة، وعند عودة الحكم العثماني مرة أخرى في عام ١٨٣٨م جعلت برقة ولاية قائمة بذاتها.

وقد حاول العثمانيون جمع السلطة في أيدهم ولكن أهل برقة لم يستجيبوا وقامت ثورات ومصادمات بين أهل البلاد والأتراك، ومع محاولة الأتراك استمالة أصحاب النفوذ في البلاد دون طائل، اضطر العثمانيون إلى الاعتراف بالسنوسية ليس فقط كدعوة بل كإمارة لها كيانها السياسي [١] فأصدر السلطان عبدالمجيد الأول عام ١٨٥٦م فرماناً يعفي جميع أملاك السنوسية من دفع الضرائب، وفي عهد أخيه السلطان عبد العزيز صدر فرمان ثان يجعل الزوايا السنوسية أماكن حماية يمكن أن يلجأ الناس إليها [٢]، ولذلك لم تتدخل السنوسية لمناصرة أية ثورة أو حركة ضد الخلافة العثمانية.

ثانيا_ المهدية في السودان:

ولد محمد أحمد المهدي في جزيرة "لبب" جنوب مدينة دنقله في عام ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م في أسرة عرفت بالتقوى والصلاح، فكان والده يعمل في صناعة المراكب في دنقله وبعد وفاته، نهج إخوته نهج والدهم في صناعة المراكب إلا أنه لم يشاركهم في ذلك، بل كان يميل إلى التعليم الديني فدخل

(١) محمد فؤاد شكري: السنوسية دين ودولة ، ص ٥١.

(٢) Shebeika. M.: British Policy in the Sudan (1882_1902) London.1956.P20-22

خلوة القرية[*] وتعلم القرآن الكريم ثم انتقل إلى الخرطوم للاستزادة من العلم ثم انتقل إلى بربر عند الشيخ محمد الخير [١] وقد حاول محمد أحمد أن يمتهن أعمالاً إلا أنه فشل لأنها في رأيه لا تتناسب مع طبيعته، وعندما لم يجد الخلوة إلى الله في الخرطوم؛ غادرها إلى النيل الأبيض حتى استقر في جزيرة أبا عام ١٨٧١م ذات الغابات المتشابكة وكان يسكنها عدد قليل من العرب الرحل وأنفار قلائل من قبيلة الشلك وهم سكانها الأصليين [٢].

وهناك اشتهر بصلاحه وتقواه وذاع صيته فجاءه الأتباع والمريدون وقد ازدادت شهرته مما جعل المسافرون في النيل يقفون بالمراكب والوابورات، فيقدمون إليه الهدايا ويطلبون البركة، فيباركهم ويوزع الهدايا على الفقراء زهداً وعفافاً [٣].

وقد التف حوله المريدون في جزيرة "أبا" يعلمهم أصول دينهم ويرشدهم إلى الطريق السوي، و كان من عادته القيام بالتنقل إلى مناطق مختلفة من دنقلا إلى سنار ومن النيل الأزرق إلى كردفان حيث يدعو الناس إلى التمسك بالدين خاصة بعد ما رأى معاناتهم من المظالم والفقر والبؤس، والضلالة والخرافات [٤]، وقد دعا إلى العودة بالإسلام إلى عهوده الزاهرة وإلى الاجتهاد قائلاً: وما العبادة إلا بالأعمال الموافقة للسنة والكتاب، ومن لم يجتهد على ذلك بشق الأنفس خسر الدارين [٥] .

(*) **الخلوة هي المدرسة القرآنية التي يحفظ بها طلاب العلم القرآن الكريم وبعض العلوم اللغوية، انظر: جلال يحيى ، الثورة المهدية ، ص ٩.**

(١) **Op.cit.22**

(٢) **Ibid.P21**

(٣) **نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٦٧/ ج٣، ص ٦٤٢.**

(٤) **حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار النهضة العربية، ١٩٦٣م، ج١، ص٤٥٨.**

(٥) **نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان، ج١، ص ٣.**

أسس الدعوة:

اعتمد محمد أحمد على التنظيمات القبلية لإنجاح دعوته ولزي يزيد من أنصاره حاول استرضاء القبائل كإباحة تجارة الرقيق بعد أن كانت الحكومة تحرمها وتحاربها، فقد كان تجار الرقيق يمثلون في البلاد طبقة قوية من الأعيان والتجار لذلك رأوا في الدعوة المهدية ما يحقق مصالحهم، هذا بالإضافة إلى جهل الأهالي وسرعة تصديقهم للخرافات والأوهام واعتقادهم بقرب ظهور المهدي المنتظر فأقبلوا على دعاوي محمد أحمد يصدقونها، ويؤمنون بها دون تفكير أو تحقيق [١] وكان من الزعماء القبليين الذين استجابوا لدعوته، وأقبلوا عليه في جزيرة أبا؛ عبد الله التعايشي وهو أكبر زعماء قبائل البقار وهي قبائل عربية ساخطة على الحكم المصري بسبب مصادرة الحكومة لتجارتهم في الرقيق تسكن في كردفان.

وعندما قدم المهدي إلى كردفان، والتقى بزعماء القبائل عاد مقتنعاً بتأييد هذه القبائل لدعوته ولقى تأييداً قوياً من عبدالله التعايشي الذي دعا محمد أحمد للإعلان عن نفسه بين الناس بأنه "المهدي المنتظر" شريطة أن يجعله وزيرا له [٢].

فكرة المهدية:

في عام ١٨٨١م اكتسبت حركة محمد أحمد صفة المهدية فكتب إلى بعض معارفه ومن يثق فيهم مبشراً إياهم بمهدويته، وأنه رأى النبي الكريم عليه الصلاة والسلام في المنام، وأنه عهد إليه بإحياء الإسلام، ودعاهم إلى الحضور إليه في جزيرة أبا [٣] ووجد منهم تأييدا له [٤]، وفي الحقيقة لم تكن فكرة المهدية

---

(١) **عبدالرحمن الرافعي: مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، دار العرب للنشر، القاهرة، ١٩٤٨، ص٩٢، ٩٣.**

(٢) **محمد فؤاد شكري: مصر والسودان تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن ١٩، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٢٩٢.**

(٣) **عبدالرحمن الرافعي: المرجع السابق، ص ١١٦.**

(٤) **محمد إبراهيم أبو سليم: الحركة الفكرية في المهدية، دار القلم، الخرطوم، ١٩٧٠، ص ١٧.**

فكرة جديدة على الناس لأن فكرة المهدي القادم لنجدة الناس مما هم فيه من ضلال وفساد كانت تنتشر في البلاد الإسلامية في فترات الأزمات، وعندما ظهر المهدي في السودان اتبعته كثير من القبائل والمصدقين به للوقوف خلفه ضد ظلم الدولة العثمانية، والعمل على محاربتها [١]

وقد وجدت فكرة المهدي المنتظر في السودان رواجًا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر لوجود بعض الشواهد على ظهوره منها؛ الظلم الواقع عليهم وقرب كمال القرن الثالث عشر الهجري، مما هيأ المناخ المناسب لفكرة إمام القرن الذي قيل إنه سيظهر في آخر كل قرن هجري[٢] ولقد كان لشخصية المهدي القوية على أتباعه أثرًا واضحًا فهو صاحب الكرامات الذي قصده الكثيرون، فعرف كيف يدخل إلى قلوبهم ويستولي على نفوسهم [٣] ومن الجدير بالذكر أن فكرة المهدية قامت في السودان نتجة لانتشار البدع والخرافات، وابتعاد الناس عن أسس الدين الصحيحة ، فكانوا في حاجة إلى من يهديهم إلى الطريق الصواب لإقامة مجتمع إسلامي صحيح [٤]ولم يكن هدف المهدي هو إقامة هذا المجتمع الذي ينشده في السودان فقط بل كان يرنو إلى الخروج منه بعد إقامته فيه إلى المجتمع الإسلامي أجمع [٥]ويتضح ذلك من مكاتباته إلى الخديوي، وإلى أهل مراكش، وإلى السلطان العثماني، وقبائل نجد والحجاز، وابن السنوسي، وسلطان سكوتو [٦].

وقد تجاوب مع حركته الكثيرون، فتوافدت عليه الوفود من مناطق كثيرة خارج السودان كمصر، والهند، وبلاد العرب، ويقال إن السيد جمال الدين

---

(١) ميخائيل شاروبيم: الكافي في تاريخ مصر القديم، دار وادي النيل للنشر، القاهرة، ١٩٤٨، ص٣٧٩.
(٢) محمد إبراهيم أبو سليم: المرجع السابق، ص ٥.
(٣) حسين مؤنس: وثائق مهدي السودان، حوليات كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد الثامن، مايو ١٩٥٣م، ص ١٤٠.
(٤) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ص ٣٧٢.
(٥) نفس المرجع السابق ، ص ٤٠٩.
(٦) محمد فؤاد شكري: مصر والسودان، المرجع السابق، ص ٢٩١.

الأفغاني ومحمد عبده نظرا لحركته بعطف وتشجيع، وأنهما كانا يهدفان لمساعدته في تحرير مصر من الإحتلال البريطاني [١].

أسلوب الدعوة:

استخدم المهدي أسلوب الثورة لتحقيق مبادئه وأهدافه الدينية والسياسية فاعتبر الجهاد ضد الحكومة وموظفيها جهادًا في سبيل الله، وطالب بطرد الإنجليز الذين سيطروا على السلطة في مصر، وهاجم توفيق باشا لأنه أحل للإنجليز الدماء والأموال والأعراض، وهذا ليس من صفات الحاكم العادل المسلم، كما طالب بطرد المصريين من السودان باعتبار ذلك الوسيلة التي يمكن عن طريقها تقرير العدالة ورفع الظلم ليملأ السودانيون المناصب التي يستغلها الأوروبيون، والمصريون ومن ثم أعلن وجوب الامتناع عن دفع أية ضريبة ثم دعا إلى شيوع الملكية فلا يستأثر مؤمن بمال أو عقار دون أخيه المؤمن بل يجري توزيع الثروة على الجميع بالتساوي [٢].

ثم طالب بالإطاحة بنظام الحكم الموجود في السودان وإقامة الإمامة السياسية والدينية بزعامته وتحت لوائه، وأعلن أن الكفر بالمهدية؛ كفر حيث قال: "من شك في مهديتنا وأنكر وخالف فهو كافر ودمه هدر وماله غنيمة"[٣].

ومما لا شك فيه أن هذه الإصلاحات والمطالب تستهوي كثير من السودانيين وخاصة الفقراء الذي رأوا في الدعوة المهدية تحقيق لآمالهم وإصلاحاً لشأنهم.

حاول المهدي دعوة الناس للهجرة إلى مكان أمين يقيم فيه الدين بعد التجمع حوله في جزيرة أبا، ولكن التطور السريع للأحداث لم يمكنه من انتظار من بعث إليهم فلقد علمت الحكومة بأمر دعوته وأرسل رؤوف باشا حكمار السودان معاونه أبو السعود يستطلع حقيقة الأمر، ويستدعي هذا الفقيه لمقابلة

---

(١) عبدالمجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان، دار العلم، بيروت، ١٩٦٧م، ص١٢٨.
(٢) محمد فؤاد شكري: مصر والسودان، ص ٢٩١.
(٣) نعوم شقير: المرجع السابق، ص ١٣٧.

الحكمدار، فقد اعتقد رؤوف باشا أن هذه الحالة تصيب بعض الدراويش [١] أحياناً.

فلم يعر الموضوع أي اهتمام لأنه لا يصدق أن يقوم درويش ضعيف القوة والعون بمجاهرة الحكومة بالعداء ولكن عندما رفض المهدي الحضور إلى الخرطوم أرسلت الحكومة حملة لإجباره على الحضور، فكانت معركة أبا في ١٢ أغسطس ١٨٨١م أول صدام بينهما وكانت نتيجتها لصالح المهدية [٢]وكان المهدي قد استعد لملاقاتهم بمن معه، تتقدمهم راياتهم الأربعة التي كتب عليها محمد المهدي خليفة النبي ومنذ ذلك الحين عرف بمحمد المهدي [٣].

هاجر المهندي ومن معه إلى جبال النوبة في جنوب كردفان حتى يكون بعيدًا عن متناول يد الحكومة، فاختار جبل قدير وهو أوعر المناطق في جبال النوبة، وقد أصبح زعيماً التف حوله أتباعه والذين كانوا يزدادون يوماً تلو آخر لأن انتصارات المهدي عدت من كراماته فذاع صيته [٤] ثم أرسلت إليه الحكومة حملة عسكرية بقيادة يوسف باشا الشلالي مدير سنار، وقد لقيت هذه الحملة هزيمة كبرى في ٢٩ مايو ١٨٨١م وقتل يوسف باشا فكان ذلك سبباً في خضوع كردفان [٥] بعدها أرسل المهدي الرسل إلى نواحي كردفان، ودارفور، والجزيرة إثارة للناس؛ فقامت الثورات في مناطق الجزيرة، وسنار، وتحول المهدي من موقف المدافع إلى المهاجم حين غادر جبل قدير متجهاً إلى الأبيض عاصمة مديرية كردفان التي سلم حكمدارها بعد الحصار، وبسقوط الأبيض سيطر المهدي على كردفان، وانقطعت سبل الاتصال بين دارفور وبين

(١) مكي شبيكه: السودان عبر القرون، دار المعارف للنشر، بيروت، ١٩٦٤، ص ٢٥٥.
(٢) جلاب يحيى: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٢٧.
(٣) عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ص ١١٩.
- محمد فؤاد شكري: مصر والسودان، ص ٢٩٦.
(٤) عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ص ١١٩، ١٢٠.
(٥) سلاطين باشا: السيف والنار في السودان، ترجمة: جريدة البلاغ، القاهرة، ١٩٣٠م، العدد ٥٩ في نوفمبر ١٩٣٠م.

الخرطوم [١] وانتشر أتباع المهدي في كل أنحاء السودان، وكانت المحاولة الأخيرة للحكومة هي ارسال حملة بقيادة هكس باشا والتي انهزمت أمام المهدي في موقعة شيكان في نوفمبر ١٨٨٣م [٢] وأصبح المهدي بعد هذا الانتصار مسيطراً على كل السودان الغربي بلا منازع.

بعد ذلك بدأ المهدي يفكر في التوجه نحو الخرطوم والتي حاصرها حتى سقطت في ٢٦ يناير ١٨٨٥م وقتل الجنرال غوردون الإنجليزي الذي كانت الحكومة البريطانية قد اختارته لتنفيذ إجلاء المصريين من السودان، وقد استمرت الدعوة المهدية في حركتها العسكرية حتى بعد موت المهدي في يونيو ١٨٨٥٤م وتولى عبد الله التعايشي زعامة المهدية بعده [٣].

_ الثورة المهدية والقوى الخارجية:

كان على المهدي وأنصاره التعامل مع قوى أخرى غير الشعب السوداني تمثلت هذه القوى في المصريين والدولة العثمانية والإنجليز.

أما بالنسبة للمصريين فقد انتقد المهدي موقف الحكم المصري في السودان بسبب استعانته بالأتراك والأوروبين في حكم البلاد وهؤلاء أساءوا إلى أهل البلاد، وقد نسى المهدي الأهداف الدينية لدعوته، وقام بالعمليات العسكرية ضد الحكم المصري والمصريين المقيمين في السودان [٤] أيضاً تطلع المهدي نحو مصر لتخليصها من حكم الترك والأوروبين ووجه رسالة إلى الخديوي توفيق يطلب منه الإيمان بالمهدية وإلا فإنه قادم إليه [٥]وإذا كان المهدي لم يوجه حملة عسكرية في حياته لغزو مصر فقد كان ذلك في نيته، لذلك حرص خليفته عبد الله التعايشي على تحقيق نية المهدي، فأرسل في مارس ١٨٨٧م

---

(١) محمد إبراهيم أبو سليم: المرجع السابق، ص ٢٤.
(٢) إبراهيم فوزي: السودان بين يدي غوردون وكتشنر، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٤٩م، ج١، ص١٣١.
(٣) نفس المرجع السابق، ص ١٣٢.
- مكي شبيكة: المرجع السابق، ص ٣٧١.
(٤) عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ص ١٠٩.
(٥) مكي شبيكة: المرجع السابق، ص ٣٦٥ – ٣٦٦.

ثلاثة رسائل إلى كل من السلطان عبد الحميد، والملكة فيكتوريا، والخديوي توفيق يدعوهم فيها إلى اعتناق المهدية قبل أن تطأ جيوشه بلادهم وتنتقم منهم [١]، وكان يهدف من وراء ذلك الحصول على اعترافهم بحكومته.

وتنفيذاً لتوجيهات التعايشي فقد أنفذ حملة إلى مصر بقيادة عبد الرحمن النجومي من دنقلة في ٣ مايو ١٨٨٩م وعند بلدة بلانة شمال وادي حلفا وقعت معركة "طوشكي" في ٣ أغسطس ١٨٨٩م انهزم فيها عبد الرحمن النجومي وقُتل وبهذه الهزيمة توقفت المشروعات المهدية لغزو مصر [٢]، ولنا أن نشير إلى أحمد عرابي فكر في التحالف مع المهدي، وكان المهدي مؤيدا له حيث كان عرابي يقف ضد الحكومة المصرية، ومع ذلك فلم يلتقيا..

أما عن علاقة المهدي بالدولة العثمانية فلم تكن علاقة طيبة لأن السلطان العثماني ساءه ظهور هذه الدعوة وثورتها على السيادة التركية لذلك وصف السلطان المهدي بأنه نبي مزيف وأنه شقي دنقله [٣]، وذلك لأن دعوة المهدي فيها خروج على فكرة الخلافة العثمانية.

أما علاقة المهدي بإنجلترا فقد بدأت منذ بدأ الموظفون الإنجليز في محاربة تجار الرقيق بشكل فيه قسوة وظلم بالإضافة إلى الروح التنصيرية التي عمل بها هؤلاء الموظفون في مديريات السودان والذين أساءوا إلى وجه الحكم المصري عند السودانيين فكرههم وكرهوا معهم الحكم المصري [٤]، وعندما قتل الضابط الإنجليزي هيكس في موقعة شيكان في نوفمبر ١٨٨٣م قررت بريطانيا سياسة إخلاء السودان من الحكم المصري، و أرسلت الجنرال غوردون لتنفيذ تلك السياسة، ولكن غوردون تعرض لحصار المهديين وقُتل في الخرطوم في يناير ١٨٨٥م [٥]. وعندما تم استرجاع السودان بقوات مصرية إنجليزية مشتركة

---

(١) محمد فؤاد شكري: مصر والسودان، ص ٤٢٥.

(٢) Holt, P. M.: The Mahdist state in the Sudan (1881-1899), London 1958.P7

(٣) دار الوثائق القومية، ميكروفيلم رقم ٤٤٠، الأوراق الأثرية لمهدي السودان.
- جلال يحيى: الثورة المهدية وأصول السياسية البريطانية في السودان، ص ٤١.

(٤) محمد فؤاد شكري: مصر والسودان، ص ٤٣٩.

(٥) دار الوثائق القومية: تلغرافات ومكاتبات تتعلق بثورة المهدي ٤/٢/٢.

من عام ١٨٩٦م إلى عام ١٨٩٨م أمر القائد كتشنر الإنجليزي بتدمير قبة المهدي في أم درمان، وبذلك تم القضاء على حكومة عبد الله التعايشي، ومن هنا أخذت بريطانيا تهتم بالسودان للسيطرة الكاملة على إدارته [١]، وكان اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر هو المسئول الأول عن ابتكار نظام الحكم الثنائي للحكم في السودان عام ١٨٩٩م [٢].

عوامل الوحدة والاختلاف بين الدعوتين:

تتشابه الدعوتان في أوجه عديدة منها:

_أن تعدد الطرق الصوفية وكثرة اختلافها يؤدي إلى تضليل الناس وتشتتهم في أمور دينهم.

_أن الدعوتان ظهرتا في فترة ضعف الحكم التركي ولم يقتصر ظهورهما على مكان معين بل انتشرت دعواتهما في شتى أنحاء العالم الإسلامي.

_كما تتفق الدعوتان في عدم التقيد بالمذاهب الدينية فكان من رأي السنوسي الكبير توحيد المذاهب لإعتقاده أن المصلحة العامة في إزالة الفروق المذهبية لإنهاء الخلافات [٣] كذلك ألغى مهدي السودان المذاهب الأربعة لوجوب التمسك بالكتاب والسنة ولأن المذاهب في رأيه واختلاف وجهات النظر حجب نور الحق والدين.

_ وتتفق الدعوتان في الدعوة للجهاد فكان السنوسي يدعو له ويستعد إذا دعى الأمر، وقد تنبأ بالاحتلال الإيطالي لليبيا وشجع الناس على امتلاك البارود والسلاح وكان يخصص يوم الجمعة للتمرينات العسكرية [٤] أما المهدي

---

(١) أحمد شفيق باشا: مذكرات في نصف قرن، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٣٦م، ج٢، ص٢٨٨.
(٢) محمد فؤاد شكري: مصر والسودان، ص ٥٤٤.
(٣) محمد الطيب الأشهب: برقه العربية أمس واليوم، القاهرة، ١٩٥٦، ص١٨٧.
(٤) لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، ج٢، ص ١٦٣.

فكان الجهاد ركناً هاماً في دعوته، وكان في نظره أن الجهاد ليس في محاربة الكفار فقط وإنما أيضاً محاربة المسلمين الذين عطلوا الدين [١].

_أيضاً تؤمن الدعوتان بفكرة المهدي المنتظر وإن كان السنوسي نفى عن نفسه المهدوية إلا أن كل أتباعه يرونها في شخصه [٢].

_أما عن مظاهر الاختلاف بينهما فقد انتهج المهدي مسلك الرسول عليه الصلاة والسلام في عدم حصر الخلافة في أسرته على حين جعلها السنوسي الكبير في نسله.

_أيضاً تختلف الدعوتان في الوسيلة التي اتبعتها كلاً منهما في الدعوة وربما كان هذا الاختلاف هو السبب الأساسي في إحجام محمد السنوسي عن دعوة المهدي فقد اتبع مهدي السودان سياسة العنف والثورة بينما اتبع السنوسي سياسة اللين والترغيب والمسالمة.

وعندما طلب المهدي وخليفته عبدالله التعايشي من السنوسي محاربة مصر وطرد الكفار منها رفض السنوسي هذا النداء لأنه لا يريد أن يتدخل في مشاكل ولأن علاقته كانت وطيدة بمصر منذ أيام الخديوي إسماعيل باشا وخطابات الود بينهما توضح ذلك [٣]. وكان ابن السنوسي يطلب العون والمساعدة منه إذا ما أصابهم مكروه في منطقة سيوه [٤].

وهكذا لم يتم التنسيق والاتفاق بين الدعوتين بسبب عدم قبول المهدي بوجود دعوة أخرى بجانب دعوته، واعتبار أن من لم يؤمن بدعوته من الكفار يحق عليه إعلان الجهاد عليه.

ومن ناحية ابن السنوسي فهو لا يمكن أن يتنازل عن مكانته ويتخلى عن أتباعه وإمارته ويكون تابعاً للمهدي فيحط هذا من قدره هذا إذا عاش

---

(١) الأوراق الأثرية لمهدي السودان، ميكروفيلم رقم ٤٤٠، دار الكتب المصرية.
(٢) محمد الطيب الأشهب: المهدي السنوسي ، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٨٦، ٨٩.
(٣) دار الوثائق القومية، محفظة ١٩، معية سنية بحر برا، وثيقة ١٣٣ من المهدي السنوسي إلى الخديوي إسماعيل في ٧ ذو الحجة ١٢٩٠هـ.
(٤) دار الوثائق القومية: محفظة ١٩ معيق سنية بحر برا، وثيقة ١٢٨ من المهدي للخديوي إسماعيل تاريخ ٧ ذو القعدة ١٢٨٨هـ

المهدي أما وقد مات فلا يمكن لابن السنوسي أن يكون تابعاً للخليفة عبد الله التعايشي وهو الذي بسبب رئاسته حدثت المشاكل في السودان.

ثالثا_ حركة الدراويش في الصومال ١٩٠٠_١٩٢٠م

تعددت في الصومال الطرق الصوفية وكان الهدف النهائي لكافة الطرق هو العمل على إعلاء كلمة الإسلام وإن كان الاختلاف بين هذه الطرق وبعضها، قد أضعف قوة المسلمين داخل الصومال خاصة وأن الولاء كان موزعاً بين الولاء للطريقة أو الولاء للقبيلة في وقت غابت فيه السلطة السياسية للصوماليين(١).

كانت الطريقة القادرية نسبة إلى السيد عبد القادر الجيلاني أول الطرق الصوفية التي دخلت الصومال، وكثر أتباعها إلا أنها انقسمت على نفسها فأصبح هناك قسم في الشمال في منطقة الاحتلال البريطاني بقيادة السيد عبد الرحمن سيلائي الذي توفى في أوجادين عام ١٨٨٣م والأخرى تسيطر على الجنوب بقيادة الشيخ عويس محمد الذي تم اغتياله عام ١٩٠٩م، ثم ظهرت الطريقة الأحمدية والتي شاركت الطريقة القادرية في شعبيتها، وكانت تعتبر أكثر تقدماً وتطوراً من حيث الأفكار والمبادئ من الطريقة القادرية وقد تمركزت الطريقتان في المناطق الزراعية ما بين نهري شيلي وجوبا (٢).

في نهاية القرن التاسع عشر ظهر في مكة المكرمة السيد محمد صالح من أبناء الطريقة الأحمدية امتد نفوذ أتباعه إلى الصومال مما أوجد نوعاً من التنافس بين الأحمدية والقادرية ومن بين صفوف الأحمدية الصالحية ظهر الشيخ محمد عبداللا حسن متزعماً حملة تحرير بلاده من الكفار (٣).

بعد عودة الشيخ محمد من مكة استقر في مدينة بربرة وكان متحمساً لتطبيق تعاليم الإسلام مجرداً مما لحق به من بدع وضلالات فاجتمع حوله

---

(١) **حمدي الطاهري: قصة الصومال، د. ت، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٤٠.**
(٢) **راشد البراوي: الصومال الجديد فلسفة وأمل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٧٣م، ص٧٣.**
(٣) **حمدي الطاهري: المرجع السابق، ص ٤١.**

أعداد كبيرة بدأ الشيخ محمد يحث الأهالي على مقاومة الاحتلال خاصة بعد إنشاء الإرساليات التنصيرية الإنجليزية والفرنسية العديد من مراكز التنصير وإلحاق الأطفال الصوماليين بها مع تغيير أسمائهم وديانتهم [١]. وفي مطلع شهر سبتمبر عام ١٨٩٩م أرسل الشيخ محمد رسالة إلى القنصل العام البريطاني على الساحل الصومالي يتهمه فيها بالعمل ضد الدين الإسلامي وطالبه بدفع غرامة مالية عما ارتكبوه من أفعال كان رد القنصل على ذلك بأن طلب من حكومته إرسال حملة للقضاء على الشيخ حسن وأتباعه "الثائرين والخارجين عن القانون"[٢]. وجد الشيخ محمد وأتباعه والذين بلغ مجموعهم أكثر من خمسة آلاف في مواجهة مع كل من إنجلترا وإيطاليا والحبشة فما كان عليهم إلا أن يهربوا إلى أقاليم تبعد عن بطش هذه القوات، وبدأت الجموع المؤيدة لحركته في الانضمام إليه وأطلقوا على أنفسهم اسم "الدراويش"[٣] ، جاهد الشيخ محمد وأتباعه لمقاومة الغزاة وبدأت الأسلحة تصل إلى الدراويش عن طريق الموانئ الصومالية خاصة جيبوتي، كما تعرضت القوافل التجارية التي تعبر أوجادين للاستيلاء عليها مما دفع الحبشة إلى إرسال قوة إلى أوجادين للقضاء على الشيخ محمد وأتباعه فلما لم تجد لهم أثراً، فقامت بتدمير المدينة والاستيلاء على ممتلكات الأهالي، فأوعز ذلك نفوس الأهالي فوقفوا بجوار الدراويش وساندوهم وقاموا بالهجوم على الحدود الأثيوبية واستردوا ما نهبته القوات الحبشية وقد اعتبر ذلك نصراً مؤزراً [٤] للدراويش، ومنذ ذلك الوقت لم يصبح الشيخ محمد أو السيد محمد كما أطلق على نفسه فيما بعد مسؤولاً دينيا فقط بل أصبح قائداً سياسياً وأصبح يخطط لأتباعه للإغارة على المناطق المختلفة والعودة بالغنائم. وقد أوجد ذلك فزعاً لدى قوات الاحتلال الذين كان همهم الأول الحصول على المواشي لتصديرها، لذلك قرر القناصل اتخاذ

(١) أمير سعيد: الصومال مفردات الأزمة وأبجديات الحل، ط١، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م، القاهرة، مركز الرسالة للدراسات، ص ٢٣.
(٢) حدي الطاهري: المرجع السابق، ص ٤١، ٤٢.
(٣) عبد العزيز المهنا: الصومال بين حياتين بناء الدولة وحياة القبيلة، القاهرة، دار النشر العربية، ط١، ١٩٩٢م، ص٥٦.
(٤) راغب السرجاني: أنت والصومال، القاهرة، دار أقلام للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٢، ص٣٧.

إجراءات حازمة لمواجهة الدراويش [1] ففي مايو ١٩٠١م اتفقت بريطانيا مع الحبشة على إرسال حملة للقضاء على الدراويش وانضمت إليهم قوات إيطالية بعد ذلك، ولكن تلك القوات لم تستطع القضاء على الدراويش أو اعتقال السيد محمد.

لذلك قرروا وضع هدنة والاتفاق مع السيد محمد والذي وافق على ذلك ولكن بشروط؛ ومنها حقه في حكم أتباعه والتمتع بالحرية الدينية وحقه في حرية التجارة ، وأن يقيم شمال سلطنة "أبيه" على الساحل الصومالي والتابعة لإيطاليا. وافق المستعمرون على هذه الشروط وتم عقد الاتفاق في ٥ مارس ١٩٠٥م بين القنصل الإيطالي في عدن والسيد محمد [2]

كانت إنجلترا تعلم أن هذه الاتفاقية لا تعني أنه تم القضاء على قوة الدراويش بل سيظلون قوة تهدد وجودهم في الصومال مستقبلاً لذلك بدأت إنجلترا في إمداد بعض القبائل بالأسلحة وتجنيدها للإغارة على الدراويش، والقضاء عليهم أيضاً حاولت إثارة الفتن حول السيد محمد، فعملت على الاتصال بالسيد محمد صالح مؤسس الطريقة الصالحية في مكة، والذي يعتبر السيد محمد أحد أتباعه، واستطاعوا أن يحصلوا منه على كتاب في سنة ١٩٠٩م يعلن فيه خروج السيد محمد على تعاليم الطريقة وأنه خارج على الإسلام، وقامت السلطات البريطانية والإيطالية بطبع هذا الإعلان وتوزيعه على الأهالي حتى تفقد الحركة قوتها وينتفض عنه أتباعه[3].

ولكن تخطيط إنجلترا لم يكن في محله، فقد أصبح السيد محمد رمزاً قومياً لا يستطيع أحد أن يطعن في قوميته أو دينه حيث نجح السيد محمد في بعث الكرامة الوطنية وإثارة الحماس والتضحية في نفوس مواطنيه وهكذا فشل الإنجليز في تكوين جبهة متحدة من القبائل ضد الدراويش بل أصبح هؤلاء قوة تهدد الإنجليز أنفسهم بإنضمامهم إلى الدراويش ووسط هذا الجو العاصف قرر

---

(١) حمدي الطاهري: المرجع السابق، ص ٤٤.
(٢) عبد العزيز المهنا: المرجع السابق، ص ٨٢.
(٣) السيد رجب حراز: التوسع الإيطالي في شرق إفريقيا، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٢٩.

الدراويش سرعة التحرك لمواجهة الإنجليز، فبدأت الإغارة على معسكراتهم واشتعلت المعارك في كل مكان وانتصر الدراويش في عام ١٩١٣م عندما قتل قائد القوات الإنجليزية في إحدى المعارك[١].

وقد كان لقيام الحرب العالمية الأولى وهزيمة الألمان والأتراك الذين كانوا يساعدون السيد محمد وحصار إنجلترا للساحل الصومالي، ومنع وصول الأسلحة للدراويش عوامل مهمة للقضاء عليهم نهائياً عام ١٩٢٠ [٢]، وبوفاة السيد محمد في ٢١ ديسمبر ١٩٢٠م انتهت حركته التي طالبت بالتحرر والاستقلال والحفاظ على الإسلام في الصومال ولا جدال في أنه نجح في خلق واحياء الشعور الوطني، وابراز أهمية الوحدة السياسية بين أبناء الوطن الواحد وخطورة الاستسلام للعدد وضرورة مقاومته بكافة الوسائل ، كما نجح في نشر الإسلام وتنقيته من البدع بين كثير من القبائل.

أما إيطاليا فقد حاولت الاستفادة من الدراويش باستخدامهم لغزو الأراضي الحبشية أيضاً كان إحتلال إيطالي للصومال حيوياً فسوف تجد مورداً للمواد الخام ورغم أن حركة الدراويش نجحت في تعطيل إيطاليا في بسط نفوذها على جنوب الصومال إلا أنه بانتهاء الحركة استطاعت بسط نفوذها على جنوب الصومال بأكمله بموافقة إنجلترا الضمنية على زرع الخلافات بين القادرية والأحمدية وضرب المقاومة الوطنية [٣].

(١) عبد العزيز المهنا: المرجع السابق، ص ٧٢.
(٢) حمدي الطاهري: المرجع السابق، ص ٤٥.
(٣) السيد رجب حراز: المرجع السابق، ص ٤٣.

الخاتمـــة

من خلال تلك الدراسة اتضح لنا أن قيام الدعوات الإصلاحية في العالم العربي والإسلامي دعت إلى رجوع الدين الإسلامي مما لحق به من بدع وضلالات كما عملت على نشر الدين بين القبائل الوثنية في إفريقيا.

واتضح لنا أن تلك الدعوات اتخذت في بداية ظهورها طريق المسالمة والملاينة ونأت بنفسها عن الخوض في خلافات تعوقها عن تحقيق أهدافها ثم اتجهت بعد ذلك إلى طريق الجهاد في مقاومة القوى المختلفة المسيطرة على العالم العربي آنذاك وقد عجزت تلك الدعوات عن صد تيار الأطماع الأوروبية إلا أنها نجحت في نشر الإسلام والحفاظ عليه ونجحت أيضاً في إحياء الشعور الوطني وأهمية الوحدة السياسية بين أبناء الوطن الواحد.

ولنا أن نسأل هل كان من الممكن التنسيق بين تلك الدعوات بما أن هدفها كان واحد في لعب دور بارز في تاريخ إفريقيا ونشر الإسلام ووقف الزحف الأوروبي على إفريقيا؟!

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: وثائق غير منشورة:

دار الوثائق القومية..

معينة سنية عربي دفاتر – محافظ.

معينة سنية تركي دفاتر – محافظ.

وهي وارد الإفادات والتحريرات بين الأقاليم والدوانين محفظة ١٩ وثيقة ١٢٨، محفظة ١٩ وثيقة ١٣٣.

الأوراق الأثرية لمهدي السودان ، ميكروفيلم تحت رقم ٤٤٠.

ثانياً: المراجع العربية:

- إبراهيم فوزي: السودان بين يدي غوردون وكتشنر، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٤٩م.
- أحمد شفيق باشا: مذكرات في نصف قرن،ج٢، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٣٦م.
- السيد رجب حراز: التوسع الإيطالي في شرق إفريقيا، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.
- أمير سعيد: الصومال مفردات الأزمة وأبجديات الحل، ط١، القاهرة، مركز الرسالة للدراسات١٤٣١/٢٠١٠م.
- جلال يحيى: الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان، دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٥٩م.
- حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا،ج١، دار النهضة العربية، ١٩٦٣م.

- حسين محمود : وثائق مهدي السودان، حوليات كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد الثامن، مايو ١٩٥٣م.
- حمدي الطاهري: قصة الصومال، د. ت، القاهرة، ١٩٧٧م.
- خليفة المنتصر: ليبيا قبل المحنة وبعدها، دار النهضة، القاهرة، ١٩٧٩م.
- راشد البراوي: الصومال الجديد فلسفة وأمل،ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٣م.
- راغب السرجاني: أنت والصومال، القاهرة، دار أقلام للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٢م.
- رأفت الشيخ: في تاريخ العرب الحديث، دار الثقافة للنشر ، القاهرة، ١٩٨٠م.
- زاهر رياض: استعمار إفريقيا ، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥م.
- سلاطين باشا: السيف والنار في السودان، ترجمة: جريدة البلاغ، القاهرة، ١٩٣٠م، العدد ٥٩ في نوفمبر ١٩٣٠م.
- عبد العزيز المهنا: الصومال بين حياتين بناء الدولة وحياة القبيلة،ط١، دار النشر العربية،، ١٩٩٢م.
- عبدالمجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان، دار العلم، بيروت، ١٩٦٧م.
- عبدالرحمن الرافعي: مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، دار العرب للنشر ، القاهرة، ١٩٤٨م.
- فيلب رفله: الجحغرافيا السياسية لأفريقيا، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م.
- لوثروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، تعريب: عجاج نويهض، وتعليق: شكيب أرسلان، بيروت، ١٩٦٥م.

- محمد إبراهيم أبو سليم: الحركة الفكرية في المهدية، دار القلم، الخرطوم، ١٩٧٠م.
- محمد الطيب إدريس الأشهب: السنوسي الكبير، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٦م.
- محمد الطيب الأشهب: المهدي السنوسي، دار لثقافة للنشر ، القاهرة، ١٩٥٩م.
- محمد الطيب الأشهب: برقة العربية أمس واليوم، القاهرة، ١٩٥٦م.
- محمد عثمان الحشائشي: رحلة الحشائشي إلى ليبيا، تحقيق: علي المصراتي، بيروت، ١٩٦٥م.
- محمد مصطفى بازامه: العدوان أو الحرب بين إيطاليا وتركيا في ليبيا، دار المعرفة، بنغازي، ١٩٦١م.
- محمد فؤاد شكري: السنوسية دين ودولة، دار المعرفة للنشر ، القاهرة، ١٩٤٥م.
- محمد فؤاد شكري: مصر والسودان تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن ١٩، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٧م.
- مصطفى عبدالله بعيو: دراسات في التاريخ اللوبي، دار المعرفة للنشر، القاهرة، ١٩٤٥م.
- مكي شبيكه: السودان عبر القرون، دار المعارف للنشر، بيروت، ١٩٦٤م.
- ميخائيل شاروبيم: الكافي في تاريخ مصر القديم، دار وادي النيل للنشر، القاهرة، ١٩٤٨م.
- نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٦٧م.
- نقولا زيادة: برقة الدولة العربية الثامنة، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٥٠م.

ثالثا_ رسائل علمية:

- أحمد صدقي الدجاني: الحركة السنوسية، نموها ونشأتها في القرن ١٩، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٦٠م.
- سعاد عبد العزيز: الحركة السنوسية، قيامها وانتشارها، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات الإفريقية، القاهرة، ١٩٦٩م.

_ رابعا: مراجع أجنبية

Holt, P. M.: The Mahdist state in the Sudan (1881-1899), _London 1958

Shebeika. M.: British Policy in the Sudan (1882_1902) _London.1956